الثورة والعرفان

بسم الله الرحمن الرحيم

سماحة آية الله
احمد الحسني البغدادي

الثورة والعرفان

مؤسسة الباقر
بيروت

هوية الكتاب

الكتاب: الثورة والعرفان.
المؤلف: سماحة آية الله احمد الحسني البغدادي دام ظله.
الناشر: مؤسسة الباقر ـ بيروت.
الاخراج الفني: أبو محمد الساعدي.
الطبعة: الثالثة.
سنة الطبع: ١٤٢١ هجري ـ ٢٠٠٠ ميلادي.
الكتاب الثالث: من إصدارات حركة الاسلاميين الاحرار.
الكمية: ٣٠٠٠ نسخة.
القطع وعدد الصفحات: متوسط ٩١ ورقة.

رسالتنا

((العارف شجاع..

كيف لا وهو لا يتقي الموت))

ابن سينا

فاتحة الكتاب

((وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)) التوبة / ٧٢
((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)) فصلت / ٥٣
((...الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ)) الاعراف / ٤٣
((يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) المائدة / ١٦
((اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)) البقرة / ٢٥٧
((...مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً)) الكهف /١٧
((... وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)) النور / ٤٦
((قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي...)) يوسف / ١٠٨
((الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ)) ابراهيم / ١
((فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللّهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً)) النساء / ١٧٥
((وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً...)) المائدة / ٦٤
((... رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)) البقرة / ٢٠١
((...رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ* رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ)) آل عمران/١٩١ ـ ١٩٢
((قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ...)) آل عمران / ٣١
((...وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)) البقرة / ٢٥١
((...وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللّهِ كَثِيراً ...)) الحج / ٤٠
((إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)) التوبة / ١١١ ـ ١١٢
((فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)) الفرقان / ٥٢
((ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِن بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَاهَدُواْ وَصَبَرُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)) النحل / ١١٠
((وَجَاهِدُواْ فِي اللّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ)) الحج / ٧٨
((الم* ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ*)) البقرة/ ١ ـ ٤
((قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ* قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ* وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ* قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ* قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَّهُ دِينِي* فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ* لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ* وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ* الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ*)) الزمر / ١٠ ـ ١٨

العبودية لله وليس للارباب المصطنعة

إن المنهج الاسلامي، منهج عبادة، والعبودية الحقيقية لله الواحد القهار فيه ذات أسرار.. ومن أسرارها أنها زاد الطريق، وأنها مدد الروح، وأنها مفتاح القلب لتذوق هذا التكليف في التفاني في مرضاة الله تعالى، ويغدو الإنسان بذلك محبوباً من الكل. دون أن يكون في البين واسطة وشفيع، بل يغدو الإنسان بها محبوب الممكنات، وتشرق عليه الشوارق من خالق الكون والحياة.

إن استغراق الإنسان في العبودية لله وحده، ورفض العبادة والدينونة لغيره من الخلق ذو بعد حركي رسالي عظيم في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب المصطنعة، وحيث لا يجد المدعون لعبودية المبدأ الفياض سبحانه، هذا المقام في أنفسهم، ويعترفون بعدم وجدانه له، فلا بد أن يعترفوا بعدم وجدانهم بمقام العبودية الحقيقية، فإن عدم المعلول يكشف عن عدم العلة كيف يصل أحد إلى هذا المقام، وهو يقع في فوره في شر أشكال العبودية لغير الله في كل صورة من صور الحياة.. إنه يقع فرائس لشهواته بلا ضابط، وبلا شروط.. ومن ثم يفقد خاصته الادمية ويندرج في عالم اللاانسان،.. والعبودية الحقيقية هي التي تظهر آثارها على الإنسان، فلا تصدر منه مخالفات شرعية، ولا يخطر في ذهنه.. إلا الجهاد في سبيله تعالى، ليعبده وحده في الأرض، وليتحرر من عبادة الجبت والطاغوت.

وإنها ليست شعائر كما يتصوربعضهم.

وإنما هي قضية دينونة وشريعة ونظام ودستور، وأحكام وأوضاع حركية في واقع الحياة.

وإنها من أجل ذلك؟ استحقت هذه العناية كلهاإلى أبعد الأغوار في المنهج المتمثل في هذا الدين القويم.. واستحقت هذه الرسل والرسالات كلها.. واستحقت هذه المخاوف والتضحيات.. لترفع الحياة الحرة الكريمة إلى الأفق الرحب، الذي أراده المبدأ الفياض للإنسان، نوع الإنسان.

وإنها إذا هيمنت على القلب النابض، فلا يشغله شاغل من الشواغل الدنيوية المحدودة الزائلة، ولا يعيقه عائق من البذل والعطاء في سبيل الواحد الأحد سبحانه.

والعبودية الحقيقية إضافة بين الله والانسان، وهي دواء لجملة من الحالات المرضية النفسية.. وفيها الخلوص والإخلاص إنها العلاقة المباشرة بين المعبود والعابد.

إنها الموعد المختار لالتقاء القطرة المنعزلة بالنبع، الذي لا يغيض.. والانسان يبذل المال اليسير.. والإنفاق في سبيل المبدأ الفياض، ما زال عنصراً فاعلاً متدفقاً مؤثراً في تكيف الحياة وتوجيه مساراتها الحقيقية.

وعلى ضوء هذا ينشد مع عالم لا نهاية لعظمته، ولا حد لجهة من جهاته، فيضاعف بالإضافة التشريعية ذاتها أضعاف مضاعفة لا في الدنيا فحسب، بل في كل عالم لم يظهر فقر الإنسان الذاتي من كل جهة.. فعنصر ممارسة الإنفاق إما في سبيل حبه لهذا الشيء من حيث أنه يستهدف تكاملية الإنسان وترقيه الادمي بوصفه حضاري النزعة.. وإما في سبيل تطهير قلبه من الشح، والاستعلاء على حب الملك، والثقة بما عند الله الواحد القهار.. وهذا كله ضرورة ملحة لاستكمال معنى العبودية الحقيقية، ثم أنه ضرورة ملحة كذلك لحياة الأمة، فالعمل الرسالي الحركي كفاح والجهاد العملياتي كفاح، ولا بد من التكافل في هذا الكفاح.. وفي بعض الأحيان يغدو هذا التكافل شاملاً كاملاً، بحيث لا يبقى لأحد مال متميز بأية حال من الأحوال.

إن العبودية الحقيقية في الشريعة العملية، إنما هي ألطاف المبدأ الفياض لتكاملية النفس الإنسانية القابلة للتقوى، والعمل الصالح، والوصول إلى العلة الغائية المنشودة

من خلق الإنسان كخليفة في الأرض، بل وخلق العالم بروحانياته وجسمانياته، فلا كمال أرفع وأجل من العبودية لواهب الحياة.. فهي في واقع الأمر فوق الرسالة والنبوة، بل يكسب العبد مقام العبودية، التي ينال بها شفاء الروح وإزالة الحجب الجسمانية الظلمانية بين الظاهر، والباطن، بما أنها غير متناهية، وليست لها حد خاص، وهي التفاني في مرضاة الله الواحد القهار.

إن العبودية الحقيقية لا يعلم أسرارها إلا الله تعالى، بيد أن منطلقاتها ومساراتها عظيمة، فهي التي تهيىء الإنسان لسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، ومن ثم تظهر آثار العبودية على الإنسان حينما يعبد ربه شكراً له على هدايته إليه، وعلى اطمئنانه للقرب منه، والأنس به، فما كان هنالك جزاء فهو فضل من الله ومنةٌ واستحقاق على الايمان أو العبادة.

والإنسان المؤمن لا يجرب إلهه، فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له، مستسلم ابتداء لكل ما يجربه عليه، راضٍ ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء.

إذن.. لا يعقل لمثل هذا الإنسان العابد أن يدعو إلى الدينونة لغير الله في الاعتقاد والتصور، التي معناها الخروج عن الفطرة السليمة، والوقوع في منحدر الدين الموروث، والتقاليد البالية، والخرافات السخيفة التي لا تنتهي.

من هنا.. العبودية تستجيش وجدان التقوى، فالإنسان هو الرابح بـ ((العبودية الحقيقية)) في دنياه وأخراه، يعبد فيرضى ويطمئن ويستريح، ويعبد فيجزى بعد ذلك الجزاء الأوفى.. والنصوص الاسلامية ترشد إلى نبذ الكذب والغش والخيانة والتهرب والجبن والجزع والاستلاب والجشع والأثرة والتجسس، وتدعو إلى العبودية الواقعية المبنية على الخلوص والإخلاص، والخضوع، والخشوع، والتوجه والانقطاع، والانقياد إلى رب الأرباب الواحد الأحد الفرد الصمد خالق الكون والإنسان.. ومدبر السماوات والأرض، وما بينهما وما فيهما من خلائق لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى.

إن العبودية لله وحده تطلق الناس كل الناس، أحراراً شرفاء.. والعبودية لغير الله مسخ إنسانية الإنسان وكرامته، بل ثم يقع فريسة لألوان مختلفة من العبودية للعبيد ثم يقع في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء، الذين يضعونه وفق اطروحات من عند أنفسهم لا غاية لها، الا حماية مصالح المشرعين أنفسهم، فالنظرة على المستوى الانساني تكشف عن هذه الظاهرة في كل حكم بشري، لا يستمد عبوديته من الله وحده.

إذن.. متى استقرت هذه العبودية الحقيقية في قلب الإنسان المؤمن، فقد انتهى كل شيء بالنسبة إليه، وقد انقطع منه الخوف.. إلا في جناب رب الأرباب سبحانه.. فهو كاف عبده، وعليه يتوكل وحده ؟..

ثم إنها الطمأنينة بعد هذا، والثقة واليقين، والطمأنينة التي لا تخاف، والثقة التي لا تقلق، واليقين الذي لا يتزعزع.

والخلاصة.. هي المرتبة الإيمانية، التي تحصل من تذكر الحبيب في الباطن والحاضر، ومن مناجاة ذاته المقدسة.

وعند ذلك.. تزداد نورانية العبادة تنزيهاً، وتقديساً، وتمجيداً، وتضرعاً، وإنقطاعاً تاماً.

وعند ذلك.. ينكشف لقلب السالك ـ ما دام في السلوك والسير إلى الله بوصفه المطلق ـ سر من أسرار العبودية الحقيقية.

وعند ذلك.. يتجاوز مرتبة الطمأنينة والعرفان، ويصل إلى مرتبة الشهود والعيان، ويتجلى الحق لسد قلبه بالتجلي الفعلي.

وعند ذلك.. يحس لذة الحضور الوجداني، والحب الاختياري، والقرب الملكوتي، والتجلي المثالي.. ومن ثم يعشق الحق الربوبي.

وعند ذلك.. يحتجب السالك عن نفسه، وعن العبادة، ويفني عن العالم، ويشتغل بالتجلي الفعلي.

واعلم هداك الله إلى الحق اليقين: إذا وصلت هذه الحالة إلى حد دائرة الإمكان، وخرجت عن المسالك الخاطئة بـ ((الرياضات والمجاهدات))، فيظهر على القلب السالك بصورة تدريجية نموذج من رؤية التجليات الأسمائية، التي هي في حقيقة الأمر هي المرتبة الأخرى من حضور القلب في المعبود، وبعدها تحصل التجليات الذاتية، التي هي آخر مرتبة حضور القلب في محضر الحق وحضرته المقدسة الربوبية.

قال رسول الله (ص):
((اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك))
وقال أمير المؤمنين علي (ع):
((طوبى لمن خلص لله العبادة والدعاء، ولم يشغل قلبه مما تراه عيناه، ولا ينسى ذكر الله مما تسمع أذناه، ولم يحزن صدره بما أعطى غيره)).

وقال أيضاً (ع):
((إن قوماً عبدوا الله رغبة، فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة، فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار)).
وقال الإمام الصادق (ع):
((إن الناس يعبدون الله عز وجل على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدون رغبة في ثوابه، فتلك عبادة الخرصاء، وهو الطمع.. وآخرون يعبدون خوفاً من النار، فتلك عبادة العبيد وهي الرهبة.. ولكني أعبده حباً له عز وجل، فتلك عبادة الكرام، وهو الأمن لقوله عز وجل: وهم من فزع يومئذ آمنون.. ولقوله عز وجل {قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ }آل عمران٣١
فمن أحب الله عز وجل أحبه الله، ومن أحبه الله تعالى كان من الآمنين.

الكفاح السياسي والمسلح
ضد الاستكبار العالمي شهادة... في سبيل الله تعالى

إن الجهاد المسلح في سبيل الله.. والشهادة من أجل الله.. لا يكونان الا من روافد الاستقامة والانقياد المطلق لأوامر الله، بوصفه له الإهمية الكبرى من لدن أرباب البصيرة الرسالية التاريخية، وأصحاب الذوق الثوري العرفاني المتألق.
قال الله تعالى في محكم كتابه الأخير المحفوظ:
{وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} آل عمران١٦٩
في هذا النص القرآني نجد تكاملية الاهتمام بـ ((الشهادة)) الذين يخرجون في سبيل الله.. الذين يضحون بأنفسهم في معركة الحق والعدل والحرية.. وهم عادة أكرم القلوب، أزكى الأرواح، وأطهر النفوس من كل هوى وكل رغبة في أعراض هذه الأرض الفانية، فقد أرادوا من جهادهم المتواصل، وبذل أرواحهم النفيسة في سبيله والتطلع إلى وجهه ورضاه وحده دون شركة في شارة، ولا هدف ولا غاية.. الإ المبدأ الفياض.
في سبيل الحق الذي أنزله..
في سبيل هذا الدين الذي اختاره..
في سبيل هذا النهج الذي شرعه..
في هذا السبيل وحده لا في سبيل أي سبيل آخر، ولا تحت أي شعار آخر..
فهؤلاء الشهداء الأبرار.. هؤلاء الذين يخرجون في سبيل الواحد القهار، لا يخرجهم، الإ جهاد في سبيله، وإيمان به، وتصديق برسله.. كهدف إيماني حركي دائم، لإسقاط القيادات الجاهلية المضادة.
هؤلاء منحهم الله تعالى الآجر العظيم، والثناء الجميل، ومنحهم السعادة الأزلية الأبدية الكبرى.. يتعهدها الله ربها في الملأ الأعلى، ويزيدها هدى، ويزيدها صفاء، ويزيدها إشراقا.
هؤلاء (كذلك) منحهم الله تعالى حياة نامية في ظلال الله حيث جعلهم يرزقون ويستبشرون ويفرحون.. ليسوا أمواتاً إنهم أحياء، فلا يسوغ أن يقال عنهم أموات بأية حال من الأحوال، ولا يسوغ أن يعتبروا أمواتا في الحس والشعور، ولا يقال عنهم أمواتٌ بالشفة واللسان.
إنهم أحياء بشهادة الله سبحانه، قد خلت حياتهم من كل ما يؤذيها من المشقة، والجهد، والجوع، والخوف، والألم.

فإن كان الجهاد الأصغر له هذه الأهمية الفائقة من لدن الله.. فما ظنك بـ ((الجهاد الأكبر)) مع النفس، وإجهاض الهوى بالصبر، والالتجاء إلى المبدأ الفياض وحده.. حين تهتز الأسناد كلها.. وتتوارى التقاليد، والخرافات، والشهوات الحيوانية، وهي شتى، ويخلو القلب إلى المبدأ الفياض وحده، ولا يجد سنداً إلا سنده..

وفي هذه اللحظة تنفتح نورانية الذات، التي توجب حركية العمل برياضة النفس وتأديبها، وتنجلي الحجب الظلمانية لإدراك المثل والمبادئ الكبرى، والوصول إلى المعرفة الربوبية، ومن ثم توجد النقلة النوعية في فناء النفس، وتقويض الآثار الوجدانية للإنسان، والبقاء به تعالى.

وعندئذ تنفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر..

لاشئ إلا الواحد القهار.

لا قوة إلا قوته.

لا حول إلا حوله.

لا إرادة إلا إرادته.

لا ملجأ إلا إليه سبحانه.

وكل هذه المشاعر كفيلة باستبقاء القلب في حالة يقظة شاعرة حساسة، لا تغفل عن مراقبة الله، ولا تجمد، ولا تتبدل بالركود، والغفلة، والنسيان.

وعندئذ تلتقي الروح الحقيقية الواحدة، التي يقوم عليها تصور صحيح.. إنها حقيقية واقعية، بيد أنها أرقى وأرفع من أن يتصورها الإنسان.. إلا تطلعا إلى الأفق السامق المضيء.

* * *

إن الاستقامة في إحقاق الحق، والمبادئ، والمثل الكبرى.. من أظهر مقامات الأنبياء، والأوصياء، والأولياء، والعرفاء.

وهي عبارة عن الطريق القويم.

بل هي الكنز الذي يغني، ويفيض.

بل هي حقيقة الانطلاق من حدود الواقع الأرضي الصغير.. إلى مجال الواقع الكوني الكبير.

بل هي الروح، والندى، والظلال الهاجرة.

بل هي لا تتأرجح، ولا تضطرب، ولا تشك، ولا تغتاب بفعل الجواذب، والدوافع، والمؤثرات.

بل هي لا يمكن أن تحصل الإ باختيار الإنسان وامتحانه بأشد الانكسارات والانتكاسات.

في مثل هذه الفترات أمر شاق عسير يحتاج إلى صبر و مصابرة، لتبرز شخصيته الإسلامية الراسخة في نفسه، ونسف ما هو فيه من مفاسد وانحراف.. فلو لم يكن اختبار لما كان هذا الجزاء والثواب، ولا ترتبت هذه المردودات الإيجابية المتوخاة، وبعد ذلك المساندة الإلهية، ما في ذلك ريب على سبيل الاقتضاء، لا على سبيل العلة التامة.

وحقيقة الاستقامة في إحقاق الحق قائم على تجلي عظمة المبدأ الفياض سبحانه في الفؤاد والإعراض عما سواه، شريطة أن لايرى الإنسان شيئاً من هذه الأشياء الفانية غيره سبحانه، وكلما تعمق في ذلك، وظهر انشداده على الصعد كافة، ترسخت الاستقامة وتعمقت في القلب إلى درجة الخلوص، والإخلاص، والإشراق، والصفاء.

وحقيقة كفاح قوى الاستكبار والكفر العالمي لا يكون إلا من روافد الاستقامة التي تمثل الارتباطات والضوابط والدوافع والثوابت والحواجز لحقيقة المنهج الإلهي في الساحة العالمية.

* * *

إن من الأحسن والأرقى والأفضل هو الانقياد المطلق لأوامر الواحد الأحد، وطاعته، والتفاني في سبيله تعالى ثمرة ملازمة للإيمان بربوبيته تعالى.

متى صح الايمان ؟..

ومتى عرفت النفس حقيقة الإلوهية، وعرفت عبودية الكل له، ونظرت بنور القلب إلى الحقائق الغيبية ؟..

حين يسقط عنها الركام، وتزول عنها الحجب الظلمانية، وتنكشف عنها الأوهام، فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده، وتنيب إليه وحده، لا شريك له، وهو صاحب السلطان، والقدرة وحده.. الذي هو آخر حد الإمكان، وهو أول حد الوجوب.

كما أن أخطر ((المحبوبات)) من لدن الإنسان، نوع الإنسان، هي حب السلطة والثروة والسلاح، ولابد من إنفاق هذا المحبوب في دائرته تعالى ليكسب الإنسان الهدف الأسمى إلى أبعد الأغوار.

وعلى هذا سير وسلوك أولياء الله.. لأن أولياء الله في واقع الأمر:

هم المؤمنون حق الإيمان، المتقون حق التقوى.. والإيمان ما وقد في القلب، وصدقه العمل.. والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه.

بل هم وسطاء بين الحق، والخلق.. وروابط بين الحضرة والواحدية المحضة، والكثرة التفصيلية، بل هم العلة الغائية لخلق العالم بروحانياته وجسمانياته.

بل هم مظهر الرحمة الرحيمية.. التي تظهر كمال الوجود، وحقائق الغيب والشهود.

وأخيراً.. أعلم هداك الله إلى جبروته، وأراك بلطفه طرق ملكوته: إن هذه.. أو تلك المشاعر.. كفيلة باستبقاء الجهاد السياسي والمسلح الحقيقي في حالة لا تتيسر بدون العرفان الخالص، الذي يشهد هيمنة الفيض الإطلاقي، وانبساطه على هياكل الماهيات بالشهود الإيماني.. ولا يستحصل بدون الإيثار بالنفس والنفيس في سبيل المبادئ والمثل الكبرى، وحيث أن النصوص المعصومية الصادرة من المدرسة الإسلامية مستفيضة منها:

قال الرسول الاعظم محمد (ص):

((إن الله وملائكته يصلون على أصحاب الخيل من اتخذها وعدها لمارق في دينه أو مشرك)).

وقال (ص):

((للشهيد سبع خصال من الله.. الأولى: قطرة من دمه مغفور له كل ذنب.. والثانية: يقع رأسه في حجر زوجته من حور العين وتمسحان الغبار عن وجهه تقولان مرحباً بك ويقول هو مثل ذلك لهما.. والثالثة: يكسى من كسوة الجنة.. والرابعة: يبتدره خزان الجنة بكل ريح طيبة أيهم يأخذه معه.. والخامسة: أن يرى منزلته.. والسادسة: لروحه اسرح في الجنة حيث شئت.. والسابعة: أن ينظر في وجه الله وإنها لراحة لكل نبي وشهيد)).

وقال أيضاً:

((ثلاثة يشفعون إلى الله عز وجل: فيشفع الانبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء)).

وقال مولانا أمير المؤمنين (ع):

((أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فَقَبَلوهْ، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى الجهاد فولوه، وله اللقاح إلى أولادهم، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفا زحفا، وصفا صفا، بعض هلك، وبعض نجا.. لا يبشرون بالأحياء، ولا يعزون عن الموتى؟..)).

السير والسلوك الى الله الواحد الأَحد

إن للقرآن الكريم في حشد من الآيات مضامين هادفة في السير والسلوك، ويعتبر العرفاء الشامخين، والاولياء المهاجرين، ترشدهم إلى مسالك الهداية، والاستقامة والكمال، وتسوقهم إلى بارئها المتعال، وتقودهم إلى الفناء في الرب ذي الجلال والإكرام، وهي: الحصيلة النهائية، والرموز المكثفة: والدلالات الكبرى.

ولابد أن نقف هنا ـ قليلاً ـ لنلمس مسألة السير والسلوك إلى رب الأرباب.. وذلك:

أولاً: يستفاد من النصوص الكريمة أن أولي الأباب هم الذين وهبوا كيانهم ووجودهم إلى الحضرة الواحدية، وروضوا حياتهم على الصبر والمصابرة والثورة والحركة في سبيل الواحد القهار.. وهم مصداق قوله تعالى: ((إنا لله وإنا إليه راجعون)) الذي يعين مبدأهم ومنتهاهم غير الاختياريين.

إن الرؤية الثاقبة إلى هذه الحالة، وترتيب الاثر عليها من أعظم المسارات والمنطلقات، التي سلكها الأنبياء (عليهم أفضل الصلاة والسلام)، وأصحاب الذوق

والسلوك من الحكماء والعرفاء الشامخين (رضوان الله عليهم) في الصمود إلى الحضرة الأحدية.. وهذه الحالة هي غاية آمال الرساليين المجاهدين منهم، والمرتاضين في السفر من الخلق إلى الحق، ولا نهاية لهذا السير، الإ ما أدلى به خاتم الأنبياء والرسل محمد (ص) بقوله:

((من رآني فقد رأى الحق)).

وهذا هو الحضور الوجداني، والتجلي المثالي، الذي هو العلة الغائية لخلق العالم بروحانياته وجسمانياته، بل الرحمة الرحيمية، التي تظهر كمال الوجود، وحقائق الغيب والشهود.

ومن هنا.. نستكشف إيجاد جميع العوالم الإمكانية في عالم واحد، وهو: عالم الإنسانية بـ ((الاختيار)) فتغدو النيران تحت إرادته، والجنان تحت أقدامه، فتخاطبه النار بقولها:

((جز يامؤمن، فإن نورك يطفئ لهبي)).

ومن هنا.. نستكشف سير وسلوك الإنسان إلى قمة التكامل للصعود والترقي.. ينتهي بأبعد آفاقه وخصائصه في تلك اللحظات، التي يتوحد فيها مع ذاته وعقيدته ويصير تعبيراً حياً عنها، بحيث أنه: لا يمارس عملاً.. إلا ويستشعر خلال تلك الممارسة الوجود الربوبي المحيط بحقائق الممكنات كلياتها وجزئياتها، وهذا هو معنى القيمومة المطلقة على جميع ما سواه.. وحينذاك يكون الإنسان قد حقق أقصى درجات رساليته الملتزمة، وهي ((الإحسان)) للحضرة الأحدية المقدسة، وهذا لا يتحقق.. إلا إذا كان في دار التحقيق والوجود، ومحفل الغيب والشهود أولاً وآخراً.. ظاهراً وباطناً.. وما وراءه في التيه المظلم بلا دليل، وكذلك إنها من تجليات أولي الألباب بعدما لاقوا الاضطهاد والآلام في الدنيا الزائلة.. فقد هجروا الأهل والأحبة، وشجبوا المحرمات والمكروهات، وجاهدوا أولياء الشيطان والجاهلية، وحزب الاستسلام والانهزامية، لأجل إقامة حكم الله في الأرض كل الأرض، وقاتلوا النفس الأمارة بالسوء، فقتلوها بالاختيار والهيمنة على مسالكها الخاطئة والمنحرفة، وتوجيهها إلى ما يرضي خالقها تقرباً إليه، وتأملاً في ملكه بمقتضى قوله تعالى: ((لا يخافون لومة لائم))، ولأجل ذلك كانت عناية الله سبحانه لهذا الطراز الإيماني الحركي المتألق عظيمة لاحد لها ولا نهاية لعظمتها بوصفهم: مظهر من مظاهر تجلياته وأخلاقه.

بل هم الواصلون الممسكون بحبل الله، عروة وثقى لا انفصام لها.

بل هم انتصروا بلقائه والفناء فيه، وشربوا من عيونه المعنوية، واستشرقوا بشوارق الأنوار الأزلية.

بل هم الصورة المرئية من العقل الكلي في الدنيا والآخرة.

وثانياً: هيمنة ذكر الله سبحانه وتعالى على الإنسان تستوجب تجلي عظمة رب الأرباب عليه، الذي خلق الكون على أروع وأدق نظام، الذي هيأ له ظروفاً تمكنه في كل وقت من تحقيق السعادة التكاملية في الأرض والسماء.

وعندئذ يغدو طوع إرادته، والفناء في نوره عز وجل، فلا يعمل إلا بما يرتضيه بمتابعة أوامره ونواياه الإلزامية منها والتنزيهية، وينفذ ويطبق جميع مراحلها وشؤونها على أحسن ما يرام.. وفي هذه الصورة يتحقق مفهوم العبودية الحقيقية، وترتفع الأنانية، وكل الحجب الظلمانية بينه، وبين رب الأرباب.

وعندئذ يغدو مرآة لوحي السماء، ولا معنى لأولي الألباب إلا ذلك، فترى أنهم يسارعون إلى الإسلام الحركي، والايمان الواقعي.. عندما يسمعون المنادي ينادي إليه، لأن النداء كسب أحاسيسهم الجياشة بعد ما كانت مشغولة بذكر الله ((ألا بذكر الله تطمئن القلوب)).

وهذا هو السمع الحقيقي الذي يغير الإنسان عما عليه من توقف في السلوك، ومن محجوبية في القلب، ومن عدم التقدم في المسير.. ذلك كله من خلال الأسباب المانعة كالغفلة والنسيان.

وهذا هو السمع الحقيقي الذي يربط الإنسان مع الله جل جلاله، كالارتباط بين الأثر مع المؤثر، وبين المعلوم مع العلة التامة، وبين المخلوق، والخالق، بلا فارق بين جميع الممكنات فإنها كلها متعلقة بـ ((الإرادة الأزلية حدوثاً وبقاءً)).

هذا.. وإن من أعظم مقامات العرفاء العمالقة مقام الذكر.. بل هو من أجل مظاهر صوت التمجيد، يعلن وحدة الربوبية في هذا الكون كله، حيث يتصاغر كل عظيم، وينحني كل طاغية، ويستسلم كل متآمر للواحد القهار بوصفه المطلق في هذا الوجود.

إن الذين يخشون رب الأرباب ويتقونه، ويعيشون في حذر وخشية، وفي تطلع ورجاء.. يتلقون هذا الذكر في وجل وارتعاش، وفي تأثر شديد.. تقشعر منه الجلود، ثم تهدأ نفوسهم، وتأنس قلوبهم بإقامة هذا الذكر الخالص لله الواحد القهار.

بل هو الإنابة إلى الله، والعودة في كل شيء إليه.

بل هو الأنوار المعنوية بوصفها لا حد لها، ولا نهاية لعظمتها.

بل هو التقوى، والعمل الصالح، والمنهج القويم، والخوف من الله، ومراقبته في السر والعلانية، والإحساس به عند كل حركة، وكل منطلق.

بل هو طبيعة للإيمان بإله عادل رحيم عفو كريم ودود حليم، يكره الظالم، ويحب العادل، ويعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور.

بل هو التوحيد الخالص، الذي يميز المؤمن من المنافق، والصالح من الطالح، والغث من السمين، والطيب من الخبيث.

بل هو يرفد وجدان الضمير، والإنسان هو الرابح بالذكر في دنياه وأخراه.

إن الذكر سواء كان على صعيد اللسان المستمد من الفؤاد، أم على صعيد مناجاة الروح، أم على صعيد غيبة الذاكر في المذكور.. هو اتصال النفس،التي تتصل، تطمئن وترضى.. ترضى في ذلك الجوار الرضي وتطمئن وهي في ذلك الحمى الآمن.

إن الذكر وحده جزاء حاضر ينبت من داخل النفس الإنسانية، ويترعرع في حنايا القلب الآدمي.

إن إقامة الذكر تعين سلوك السالك، ويصله بالسنة التاريخية الإلهية، التي لا تختلف، ولا تحيد، ويرحمه من الشك والقلق والحيرة والتخبط بين الطروحات اللاشرعية، التي لا تثبت على حال، ويصله بالواحد الأحد يطمئن إلى جواره، ويسكن إلى كنفه، ويعيش في سلام مع نفسه، ومع الجماعة من حوله، وينتهي إلى رضوان الله، وثوابه الجزيل.

وثالثاً: تتضمن النصوص القرآنية دلالات عميقة على مخاطبة المربوب مع الرب.. ومثل هذا التوجه يستلزم حضور المخاطب لدى المتكلم، وهو من مخاطبة الرب مع خالقه بوصفه حضور فعلي شمولي وعلى الصعد كلها.. ومن طرف المربوب مع الرب كذلك.. فهو أبعد مراتب تجليات الذات الواحدية الأحدية على الأفئدة والضمائر والنفوس.

وعلى ضوء هذا كله.. ذهب الإمام القائد الحسين بن علي (ع) في مناجاته الحضورية، قائلاً:

((سيدي ماذا وجد من فقدك.. وما الذي فقد من وجدك)).

وهذه هي العلاقة الاختيارية للإنسان مع ربه العظيم، التي بها تطمئن الأفئدة، وتحصل السعادة في عالم الشهادة، والتي بها يذوق لذة الحضور القلبي في ساحة المعشوق الحقيقي العالم بالأسرار، والخفايا الجامع لجميع الكمالات غير المتناهية.

ومن هنا.. اعلم هداك الله إلى الحق المبين: إن أعظم أسماء الله الحسنى تأثيرا على النفس الانسانية، وأشدها حضوراً وجدانياً من لدن المخاطب.. اسم ((الرب)).. ولذا نجد باللمسة الوجدانية الأنبياء، والأولياء يتوسلون بهذا الاسم العظيم في توجهاتهم وحالاتهم الانقطاعية، وهم بروحانياتهم ونورانيتهم التامة، يدل على كمالية الخلوص، والإخلاص، والخضوع، والشموخ، والتضرع لربهم، ويكسبون رحمته وعنايته، وقد خلقهم خلفاء في الارض، وسادة العالمين.

ورابعاً: إن أرقى مراتب سلوك السالك إلى الله العظيم الجبار القهار المتكبر مالك الممكنات كلها، وأفضل توجهاتها ومغادرتها من الخلق إلى الحق.. أي:

التطلع إلى الله في حذر وخشية، ورجاء ومراقبة غضبه ورضاه في السر والعلانية، والإحساس عند كل حركة وكل منطلق، بحيث ينقطع عما سواه سبحانه.

وهذا كله يتوقف على اليقين وعلى الثقة، التي لا يخامرها شك، ولا يخالطها قلق، ولا تتسرب إليها ريبة، وحين يستقين قلب سير السالك، ويستوثق يعرفه نهجه، فلا يتلجلج، ولا يتلعثم، ولا يحيد، ولا يحني هامته لأحد سواه، ولا يطلب شيئاً من غيره، ولا يعتمد على أحد من خلقه.. وعندئذ يبدو له الطريق واضحا، والأفق منيراً،

والغاية محدودة، والنهج مستقيماً.. وعندئذ يصبح هذا السلوك والسير العرفاني الشامخ له نوراً وهدى لهذا اليقين.

وهذا يعني اللجوء إليه لا حد له.. فالسعي وراء المبدأ الفياض يوجب العمل دائماً نحوه، بلا تردد، وبلا تراجع، وبلا وجل.. ويرفد الإنسان أبعاده الكبرى المستمدة من صفات ذلك المطلق الكمالية الثبوتية، التي تناضل الجماعة المؤمنة نحوه بكل غالي ونفيس، فالسعي وراء المبدأ الفياض كله خصائص الصفات الكمالية والثبوتية ما لا يمكن أن يحدها حد.. بمعنى تغدو مسيرة الجماعة المؤمنة.. جهوداً وجهاداً مستمراً ضد الاستلاب والافقار، وضد الاستكبار والإرهاب.. وصموداً وصبراً راسخاً على تحمل مسؤولية الانكسارات والانتكاسات في سبيل الواحد القهار.

ومن ثم يظل ضمير الإنسان وحياته ووجوده، ووجود كل شيء من حوله مشدوداً بالله الواحد، الذي يصرف أمره كل شيء حوله وفق حكمة وتدبير، فيلتزم الإنسان في حياته بالمنهج المرسوم القائم على أساس الحكمة والتدبير، ويستمد منه قيمة موازينه، ويراقبه وهو يستخدم هذه القيم والموازين.. ولاجل ذلك غدت ألطاف الله تعالى ومننه عليه شاملة متكاملة بوصفه مظهراً من مظاهرتجلياته، وهو الصورة المرئية من العقل الكلي في هذه العوالم الكونية كلها، وقد أعد له: ((جنات تجري من تحتها الأنهار)) لا حد لجهة من جهات عظمتها كماً وكيفا، ولا ينالها أحد إلا بالتفاني في سبيل مرضاته... حتى يصل إلى درجة البقاء فيه جلت قدرته.

اسس الرصيد العرفاني الثوري
للانسان المسلم المعاصر

إن الإنسان العرفاني قادر على التعبد بمنهجه الخاص، المستقل الملامح، الاصيل الخصائص.. بـ ((الاتصال)) مع الله العلي القدير، بما يملك من قوة إيمانية صميمية.. وبـ ((الانصهار)) مع الطبيعة، بما يملك من قدرة عقلانية معمقة.. وبـ ((التفاعل)) مع الجماعة البشرية، بما يملك من مقاييس أخلاقية نموذجية.. ولاسيما ونحن ندرك عناصر هذه المبادئ الثلاث على هذا النحو.. فإن هذا الإدراك الأساسي بطبيعته قوة مستقلة، ويقظة انقلابية وجدانية دائمة في الإنسان المسلم من مفهوم عام كمصدر وقاعدة لها لا يمكن أن تكون حصيلة الرغبة الذاتية المجردة، بقدر ما هي حصيلة لجملة من المكونات والشروط والسمات والعوامل الذاتية والموضوعية، المستمدة من مصادر التشريع الإسلامي الأصيل.

إن إنسان الإسلام الخالد.. إنسان لا يخلو من جاذبية عناصر هذه المبادئ المشتركة العامة.. كحقيقة عليا نهائية تتخذ طابعاً متفاعلاً ثورياً جدلياً فيما بينها، لأنها تشكل قاعدة لكل شيء، وتسود كل شيء. لهذا كانت الشخصية العرفانية تنضج وتنمو وتتفتح سماتها المتميزة، وتزداد كمالاً وتكاملاً عقلانياً، كلما ازداد عمق هذا الاتصال، وهذا الانصهار، وهذا التفاعل.. باعتبارها التعبير الأصيل عن حقيقة الوجود الأسلامي الحضاري للأمة..

تلك هي عظمة المبادئ المشتركة العامة في تكوين شخصية الإنسان العرفاني المسلم بشكل يعبر عن طبيعتها لكي توجد الشخصية الإنسانية العالمية الوحيدة الفريدة.

وهذه عظمة الإسلام الخالد في منطلقاته العرفانية الثورية.. وهذا أمر أثمن من كنوز الأرض.

ولم يكن ذلك غريباً.. لأن منطلقات الإسلام هي التي خططت في صياغة الإنسان.. صياغة سليمة، ونضجاً صحيحاً، واستقامة هادفة.. من خلال هذه المبادئ المشتركة العامة.

ويستحيل عليه أن ينتهي في موقف ما.. بسبب حقيقته يستطيع أن يحيا عندما يخلق بالاعتماد على إيمانه.. وأخلاقيته.. وعقلانيته.. وبالارتباط الصميمي مع الأخرين، نظاماً يسوده القصد الواضح الشامل نحو الأفضل والأحسن والأرقى.. بعد أن يتجاوز حدوده، يجد نفسه مسوقاً إلى إيجاد حل لكل مشكلة من المشاكل الأساسية، من خلال مبادئه الأخلاقية العرفانية، يكافح في سبيلها، يحقق ذاته في حركة تجاوزه، وبذلك

يرتفع إلى قمة السلوك العرفاني، ويكون أداة فاعلة في عملية بناء الشخصية العرفانية من جديد.

إن الإنسان كلما اعتمد على هذه المبادئ المشتركة العامة:

استطاع أن يحقق وجوده الخاص، ككائن حي يحرك الحياة، ويتحرك في داخلها..

واستطاع أن يهز القلوب البليدة هزاً، ويوقظ العقول الفانية إيقاظاً..واستطاع أن يعمق الروح الاقتحامية الوثابة.. لمواجهة الواقع وتحدياته، وإخضاعها لبرنامج، وتعويدها الحلم والانضباط مع إشعار النفس باستعلاء العقيدة على كل مصلحة، وعلى كل مكسب..

واستطاع كذلك أن يؤكد التعامل الإلهي، والتفاعل المادي، والسلوك الأخلاقي.. المنسجم وقيم الأمة الأصيلة.

ومن ثم.. يجد حلاً جديداً لتناقض يعانيه، وانسلاخاً تاماً عن التقاليد، والعادات، والأوضاع، والتصورات، والممارسات الجاهلية، التي هي نتاج مرحلة فقدان الشخصية العرفانية.

وحينئذ يكون أقرب إلى حقيقته البشرية الإنسانية، التي تفرض التجاوز الثوري، والصراع الحضاري.. كقوة دافعة فاعلة.. تستطيع أن تولد التوازن في الشخصية العرفانية المتكاملة، التي كانت تولده في المؤمنين الإسلاميين الأوائل.

هذه هي خصائص المبادئ المشتركة العامة.. تميز شخصية وجود الإنسان المسلم العرفاني عن كل وجود في العالم بمقوماتها الخاصة، وقيمها الخاصة، وطابعها المميز.

وهذه هي خصائص المبادئ المشتركة العامة:

- الاتصال مع الله..
- والانصهار مع الطبيعة..
- والتفاعل مع الجماعة..

وهي العناصر التي تزود الداعية بالرصيد العرفاني الثوري، وتقدم الدعوة على منهجها الواضح الخاص من الله، والى الله، وعلى الله: وكفى بالله وكيلاً.

ونتائج تمزق الشخصية العرفانية وتداعيها من لدن الفرد، هي:

عدم شحن طاقته على صياغة طموحه ومستقبله.. وعدم كفايته لإيجاد التقارب والتعارف في صياغة طموح ومستقبل الأخرين بالنظرة الواقعية بصورة مباشرة، أو غير مباشرة، لأن من يفقد شخصيته العرفانية، خسر إنسانيته العليا، وينزل إلى إنسانيته السفلى، حيث يلتقي بالحيوان التقاء القريب بالقريب.

ونتائج تمزق الشخصية العرفانية وتداعيها من لدن الفرد: عدم كفاءته لابتكار أطروحة إنسانية فريدة منتزعة من منطلقاته عن العوالم الكونية. وبالتالي يغدو إتكالياً على عناصر حضارية رجعية غريبة من منطلقاتها النظرية والعملية، فينتزع منها، ويسقط في منحدر سحيق في عدائه السافر ضد منطلقاته الخاصة والعامة.

إن أقرب الأمثلة إلينا في هذا الشأن يبرز في الوضعية المعاصرة، التي يعانيها الإنسان المسلم من نتائج مرحلة التردي، فإنه خاسر المكونات الرئيسية ذات العمق الحضاري الإنساني، المعبرة من روح وأصالة تلك الأمة الرسالية المرحومة المجيدة.. ومن ثم لا يملك الكفاءة العميقة في ابتكار نقلة نوعية عرفانية إسلامية للحضارة غير المحدودة بالغد الجديد، أو بمعنى أخر هو: مفروض عليه في الاقتناص من حضارة أوروبا الاستكبارية مما قد يجعله بعيداً عن الشريعة الإسلامية القائدة.. وعدم كفاءته في تغير منطلقات الإسلام العرفانية إلى حقيقة عظيمة كأساس لعناصر التقدم والانبعاث الحضاري الحركي من صورة شاملة لبناء العالم والإنسانية من جديد.. بناء تتحد فيه النظرية والتجربة، والفكرة والإرادة، والأصالة والتجديد، والفعل والتأمل، والشعور والسلوك، والإيمان القلبي، والإحساس العملي، والروح والمادة، والماضي والمستقبل.. دون حدوث نتائج سيئة تستنزف قواه (أي الإنسان) وحيويته وقابليته على الحياة، فتقلص عن متابعة وسيادة الواقع في التحولات والمنجزات الكبرى، التي تبرز فيه.

بيد أن التحدي الأجنبي الذي واجه الإنسان المسلم لم يتمثل بدور الغرب وحسب، على الرغم من مخاطر هذا الدور، وإنما تمثل كذلك بروح التبعية الفكرية، وبالسياسة الذيلية، التي اتبعتها الأحزاب الماركسية من حملة الجنسية الإسلامية في الوطن الإسلامي الكبير.

وبكلمة أخرى إن تمزق الشخصية العرفانية في روح الحوزة الإسلامية الحاضرة وتنظيرها.. تبرز على المسرح الحياتي بشكل سافر إذا ما أخذنا في حساباتنا الدقيقة أن واقعية آيديولوجيا الإسلام في الأرض كل الأرض، ليست مقيدة ضمن الأطر العنصرية، أو القطرية، أو الإقليمية، أو البيئة الخاصة.. وإنما ممتدة امتداداً أفقياً في كل الأطر المطروحة.

ومن وظيفة الشخصية العرفانية إن قامت بمهامها (كما نراها عبر تجربتها في معترك الحياة، ومصطرع الأحداث) أن تحدث انعطافة فكرية رسالية رائدة، ونقلة نوعية عملاقة.. تتفاعل في الجماعات الإسلامية في أصقاع الأرض، بما تمتلك من مقاصد وآمال جديدة تبثها فيها بشكل ديناميكي حسي يتسع للتطورات والتحولات والمنعطفات الجديدة، مما يجعل وجود شريعة الإسلام ذا مظهر من مظاهر الانسجام والتجانس والوفاق.. تتجاوز حدود الزمان والمكان، وإن أي استلاب لهذه الشخصية يعني بالأساس استلاب لقدرة الإنسان على الخلق والابتكار والإبداع، بل عاجز عن الامتداد مع حركة التأريخ والتأثير فيها.

وهذا بعكس الشخصية العرفانية الرسالية، التي لم تنهض بمهامها بالشكل المطلوب على الساحة الإسلامية.. فإن التحصيل الحاصل فعلاً هو واجهات اجتماعية وسياسية لكل تجمع من التجمعات منها وحدها، وهذه هي الحقيقة الواقعة تنشئ بين التجمعات الإسلامية تحاجزاً واعياً، جعل ثمة أجواء إسلامية متحاجزة وراء قيود رومانتيكية صاغت ذاتها.. وبالتالي تنهض الغموض، وتغرق في منحدر الوحل، الذي تتمرغ فيه بالمستنقع الكريه، ولا تستقر بشرعيتها العقيدة الاسلامية، لأنها ليست وصفاً تبريرياً للحقيقة الواقعية، هي موقف تقيمي قياسي في نقض الحقيقة الواقعية تدل على نوع المنعطفات التاريخية، التي يجب إنجازها، وتكشف عن الشرائح الاجتماعية، التي يجب تغييرها وترتب تأثيراتها، واستجاباتها وفق منهجيتها، التي تريد.

وعلى أية حال.. على الرغم من تكالب قوى الاستكبار والكفر العالمي المضاد لمبادئ الشريعة الإسلامية العظيمة لمستها عن طريق تورط الأمة في الصراعات المذهبية، والنزاعات الانشقاقية التقليدية،التي تتقاذفها الأهواء، وتتناوحها الهواجس، وتتخاطفها الهواتف، وتمزقها الحيرة، وتقلقها الشكوك، ويضطرب سعيها هنا وهناك، وتتأرجح مواقفها ذات اليمين وذات اليسار، وهي لا تلوذ من حيرتها بركن ركين، ولا بملجأ أمين.. ولا تزال توجد (ولله الحمد) في أصقاع إسلامية أشياء من ملامح هذه الشخصية الملتزمة ممثلة من الإسلاميين من عباد الله الصالحين المتدينين المتنورين الناهضين، الذين لم تتمكن قوى الاستكبار والكفر العالمي الحديثة من تلويثهم في منحدر الميوعة والترهل والخفة والتردد والتذبذب.

لهذا فعلى القيادات الإسلامية المعاصرة أن يقدموا التضحيات الجسام، من أجل أن تسود معالم الشخصية العرفانية الشمولية التكاملية.. عقول وخيالات الأجيال الطليعة الجديدة، وتولد فيهم المبادئ المشتركة العامة:

الايمان.. والعقل.. والأخلاق.. وهذه هي الحقيقة الهادفة، لأن الشخصية العرفانية الرسالية المستقلة هي التي لا تفهم لغة الاستسلام في موقف عصيب، ولا ممارسة الازدواجية في عمل رهيب، والتي تنتزع أصالتها وتحديها من أصالة الإسلام وتحديه.

وشمولية منطلقاته، وتكاملية مناهجه، كذلك هي ـ على أصالتها وتحديها ـ تتسم بالمرونة الثورية، والأخلاقية التسامحية، قد صاغتها أبعاد الإسلام التسامحية، وأنضجتها أخلاقياته السامية.

وهذا التوازن في الشخصية العرفانية الإسلامية ضروري للإنسان المسلم المعاصر، كي يقف الوقفة الصلبة رافع الرأس، ولا يحني رأسه، إلا لله، وشريعته الكونية.. مطمئن الفؤاد، لا يقلق، ولا يتزعزع، ولا يرجو، ولا يخاف أحداً، إلا الله.. رابط الجأش في الضراء، قرير النفس في السراء، لا تستطيره نعماء ولا بأساء.

بيد أن هذه الشخصية العرفانية أشد ضرورة للقيادات الإسلامية ،التي تتحمل تبعة ارتياد الطريق.

خاتمة لابد منها

قبل أن ننتهي من هذه الأطروحة.. يحسن بنا أن ننتقل إلى المقولات العرفانية ذات الأبعاد الرسالية الهادفة، التي صرح بها الإمام المجاهد السيد البغدادي نور الله ضريحه (المتوفى أواخر ذي القعدة عام ١٣٩٢ هجرية) في موسوعته الإسلامية الكبرى: ((التحصيل في أوقات التعطيل)).. إذ كتب يقول:

-١-

اجتمع عارف بآخر، فتذاكر أمر الدين، والآخرة.. فقال: أحدهما لصاحبه.. حين انتهاء مجلسهما: أرجو أن يكون مجلسنا هذا مقبولاً عنده تعالى.. فقال له صاحبه: إني أخشى أن يكون ذلك أكبر ضربة علينا !!.. فكيف يكون مقبولاً لديه تعالى.. فلعل اجتماعنا في تزين أحدنا لصاحبه بالكلمات الظاهرة، والنيات الباطلة على خلافها، وأنت إذا لاحظت أحوال العارفين وجدت فيها ما هو أعظم منها، فلتكن ملتفتاً وتبصر.

- ٢-

حضر بعض العارفين بعض المحافل العامة.. فأخذ في الإرشاد قائلاً: اختلفت الناس في تحصيل معاشهم.. فتاجر يعيش بتجارته، ومتوقع سائل وسيلته مد يده إلى غيره، وكاسب حقير في كسبه، ومتظاهر بالدين اتخذ الديانة ذريعة لأمره، وديوث يعيش بدياثته، وظالم همه امتصاص دماء العباد، وهكذا... وكلٌّ اختار سبباً لمعاشه غير مضايق لاختياره.

ولكن.. الواجب هو النظر في سببه.. هل هو صحيح مشروع، أم لا ؟..

وهل هو شاق، أم لا ؟.. وهل هو حقير، أم لا ؟.. ثم بعد انتهاء إرشاده، قال:أصبحت في أحسن عيش، ولم أكن تحملت مشاق الكسب، ولا لي من المال ما به الكفاية، ولا دخلت مدخلاً محرماً، أو ساقطاً، أو نحوهما.. فأذعن له بذلك جميع من حضر.

قلت لا ريب في تواتر الأدلة كتاباً وسنة على أنه تعالى متكفل بالأرزاق، ولا سيما لو كان للعبد موجب ومؤكد كالكرم والضيافة ونحوهما.. فكيف بالتقوى، وعلم الدين، فإنهما من أكبر أسباب الفيض والارتزاق، وقد شاهدنا ذلك مشاهدة لا تنكر.. نعم نحن لا ننكر التخلف في الجملة، ولكن تكلمنا عليه فراجع.

-٣-

العرفاء هم الذين فحصوا عن رذائل أنفسهم فنبذوها، وتتبعوا الفضائل فأخذوها.. فاستنارت لهم عقولهم، واتسعت بذلك معارفهم.. حتى عرفوا من الناس صفات ما جهلوه، واطلعوا على جملة من سرائرهم، وما انطوت عليه، بل افتضح لديهم جملة من الخواص ،وهم لا يشعرون بأسباب فضيحتهم جهلاً وغروراً.. وهذا أحد وجوه اجتنابهم ترويجا وتوثيقاً..

فيا عجباه !!.. من جاهل العصر جاز لهم مضايقتهم، وقد أخذ العرفاء تمام الحزم في تخلصهم منهم.. فإياك أيها الجاهل أن تبادر إلى إنقاصهم، وإلغاء الاعتناء بهم، وأعجب شيء تشبه بعض الناقصين بهم، فاجتنب توثيق الثقاة، وترويج العلماء، فإنه من وساوس، ودسائس الشيطان.. نسأله تعالى حسن التوفيق على كل حال.

- ٤-

قال بعض العارفين المراقبين، فكرت ليلة من الليالي في أمري، فوجدت نفسي على جانب عظيم من المعارف الآلهية والأخلاقية، كما أني نظرت إلى نعمها، فوجدتها لا تحصى، ثم نظرت بعد ذلك إليها، فرأيتها على خطر عظيم في معارفها ونعمها، ففرضت لها معارف ونعما أخرى تسكيناً لها من خطرها وخوفاً.. فإذا هي لا تسكن أبداً فتأملتها.. فإذا هي كأنها معلقة في الهواء بين الأرض والسماء في تمام

المحنة، وأشد البلاء عاجلاً أو آجلاً لا تحصل لها القرار والراحة.. إلا بالموت المقرون بالعاقبة الحسنة، أللهم وفقني لها.
قلت: من كان موقفه كذلك.. توفرت نعمه، وتضاعفت معارفه، وواظب على جهاد نفسه، وتجرد لخدمة ربه، بل أدى به موقفه إلى تقوية اليقين، ونيل أعلى مراتب المؤمنين.. فكيف لا يحصل التوكل عليه، والانقطاع إليه؟.. اجعلني كذلك، وانت أرحم الراحمين.

- ٥-

قيل لعارف اعتزل أهل زمانه.. ما هذا الاعتزال ؟!..
فقال: لو صرحت بأسبابه لكنت لنفسي منزها، ولغيري قاذفاً..
وقيل له أيضا في ذلك !!..
فقال: لو أظهرت الأمر.. لكنت شاكياً خالقي إلى مخلوقه، أو كان شامتاً بي عدوي.

- ٦-

كان لنا أخ من المؤمنين صالحاً عارفاً ممتازاً في معارفه مسدداً في أعماله، وأفعاله كافة.. قد أوقفنا على مسائل مهمة، واستفدنا منه فوائد جمة في معارفنا، ونصائحنا، وهكذا... مع أنه لم يكن من ذوي التجارب، ولا من ذوي الأفهام العالية، فعلمنا بذلك أن المنشأ الوحيد في حيازته مراتب الكمال هو: صلابة إيمانه، وشدة صلاحه.
وبهذا.. ظهر لك أن للايمان والصلاح أثراً عظيما في التوفيق والوصول إلى غايات عالية من المعارف.
ولكن.. شاع في زماننا إهمال الإيمان، والصلاح من بعض الناس متخيلاً أنهما من أكبر الأسباب القاضية على المعارف، وهذا عين الجهل.

-٧-

قال بعض العارفين من علمائنا المعاصرين:
لقد وقفت اليوم موقفاً عظيماً لازلت لأجله مفكراً، بل مهتماً متأثراً.. وكيف لا أكون كذلك ؟.. وأرى أمرين بين مواقف لا أنفك عن أحدهما.. فإن دعوت إلى نفسي خاطرت عليها من محاذير في ديني ودنياي.. وان دعوت إلى غيري فكذلك.. وإن اجتنبت هذا وذاك كنت مبتلى بالرؤساء واتباعهم مسحوقا لهم من جهات، وربما تضرني في ديني.
قلت: هكذا ينبغي أن يكون موقف الديني الكامل، ولا سيما الذي يؤخذ عنه، ويقتدى به.
ولكن.. شاع في زماننا الإهمال !!.. فترى تارة من يدعو إلى نفسه مع اختلال شرائط دعوته في نفسه وغيره ووقته، وهكذا.. مما لا يحصى كثرة.. وأخرى من يدعو إلى غيره مع انتفاء أهليته لها، بل وسقوط صاحبها، بل وهناك لا يلتفت إليها، فهو: كالدابة المرسلة المنقادة لأحقر مرعى.. وثالثاً: من يعتزل الأمرين متجاهراً، أو مقابلاً مع ما فيه من المحاذير.
فالواجب هو: بذل تمام الجهد في حفظ أمرك فيما يتعلق بنفسك وغيرها، فلا تتسارع إلى أمر لا تعلمه، أو يجر فساداً عظيماً تكون مسؤولاً عنه في آخرتك، أو مبتلى به في دنياك.

- ٨ -

قد قامت الأدلة القاطعة، ولا سيما الوجدان على استحالة حصول رضا الناس كافة عن شخص واحد، هذا مع بداهة اختلافهم من جهات شتى.. فبان من هذا أن طلب رضاهم من أوضح الأمور المستحيلة.. فلا وجه للتكليف الديني، ولا سيما الداعية به، بل هو أكبر المكائد القاضية على الدين وأهله، لاستلزامه المحاذير الخارجة عن حد الإحصاء مع اقتناعه في نفسه.

وكيف كان ؟.. فهذا مع كمال وضوح فساده، قد التبس على بعضهم الامور.. فالواجب هو الأخذ بالميزان المطابق للعقل والشرع.

-٩-

أيها الإنسان أنت مبتلى بنفسك من جهات شتى لا تخفى !.. ومع ذلك فلا ريب لابتلائك بأفراد قاصرين مضيفين إلى نقائصك نقائص.. وآخرين بخلافهم.. ملتفتين ومصرين على قذفك ورميك بما أنت بريء منه.

إذا عرفت هذا لزمك الاحتياط التام للأمر الذي تدخل فيه، أن تكون بصفة ممتازة بالكمال، ونحوهما.. متوجهاً إلى نفسك مشغولاً بها، متحذراً من غيرك، متأملاً ومتأنياً في أمرك، واحذر أن تكون متكلفاً، فإن ذلك من أكبر مسقطاتك، والله الموفق.

-١٠-

كيف يمكنك أن تنهض بأمة قاصرة أفهامها، غير مستقيمة على مبادئها، ساقطة في أطماعها، شحيحة نفوسها، ضيقة صدورها، معيبة من جميع جهاتها، لا زالت في أمورها مختلفة، وفي أعمالها متخاذلة !!..

إذا عرفت هذا.. بأن لك فساد الاعتماد على هؤلاء في كل أمر، فإذا دخلت في أمر كبير، فاستعن بالله أولاً، ثم كل ما تقوى به.

هذا.. وقد ثبت الاغترار بالناقصين كثيراً، بل وثبت إلجاء الكاملين إليهم.. حتى إذا بان الاختلال أصغيت إلى الكاملين دونهم، وهذا شيء واقع كثيرا، فتتبع الوقائع الواقعة من هذا القبيل، فانه أكبر نافع في التدبير والمعرفة.

- ١١ -

الله تعالى معتمدي في كل شيء، فلا يليق بالمؤمن العاقل اعتماده على نفسه لقصورها من جهات شتى.. فضلاً عن تقصيرها وإهمالها.. ولذلك لا يحسن الاعتماد على غيره، إذ لا يخلو عن قاصر، أو غافل، أو ناصب، أو مخالف له في نظره، وهكذا... بل لو فكر الإنسان، والتفت أقل التفات، لوجد المال والجاه، ونحوهما.. مما لا يحسن الاتكال عليه، بل ربما تجر وبالاً عليه، بل لو حصلت تماماً لاستحال أن يحكم بأنها دافعة للعروض الواردة عليه.

إذا عرفت هذا.. لزمك الانقطاع إليه تعالى في كل شيء.. نعم غاية ما يلزم العاقل أن لا يكون مهملاً لما هو وظيفته من طاعة وتهيئة معاش، ونحوهما.. بقدر طاقته، وعلى كل حال فهو تعالى ملجؤه ومسدده، وبه التوفيق والاستعانة.

-١٢-

أيها المؤمن إذا ابتليت بأمر مهم في دينك ودنياك.. فافزع إلى الله تعالى، وعليك بتجديد التوبة، ومداومة الاستغفار، والمواظبة على صلاة الليل، والتضرع، والخشوع، والابتهال، وقراءة القرآن، وسائر الأذكار.

ولقد شهدت التجربة القاطعة بالنجاح لمن عمل هذه الأعمال.. حتى نقل ذلك عن العارفين، وعد من كراماتهم، واعتمده جميع الصالحين في مهماتهم.

بل هذا المقام أكبر مقام ثابت.. حتى توارث به السنة وأخبارهم (ع)، ففي هذا إتمام الغنى عن كل شيء سواه تعالى.

بل تتولد من ذلك الثمرات المهمة الكبيرة.. كحسن التوكل عليه، وتمام الانقطاع إليه، ونحوهما.

-١٣-

المؤمن في كل لحظة، وفي كل آن، ممتحن أشد امتحان.. فتارة: من نفسه، فهي تجاذبه إلى أهوائه، وتدعو إلى شهواتها، وهو آخذ ردعها، وتحفظه منها.. وأخرى: في إخوانه يطلبون المراتب العالية، فكلما حاز مرتبة طلبوا منه أخرى، حتى يموت كذلك لا يحكم له بالتمام أصلاً.. وثالثة: من كافة القاصرين والفاسدين على اختلاف أقسامهم المشار إليها في كتابنا، فكلما أجرى مجاملة مع فرد منهم ضويق بأخرى على ضدها مع آخر، وهكذا.. لازال منهم في مكابدات باهضة، ومشاق عظيمة.

وبهذا تعرف أن المؤمن لازال منغصاً وممتحناً، ونحوها.. ومن كان كذلك، كيف يمكن الحكم بالراحة، أو يتفرغ لأمر لا يعنيه، بل ربما ازداد ابتلاء وامتحاناً.. ألا ترى شدة ابتلاء الزعيم الديني قديماً وحديثاً.

هذا هو البلاء المستند إلى الخلق، فضلاً عن غيره، نسأله تعالى العافية، وعلى كل حال.

وبهذا ظهر لك وجه الحديث: ((الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر)) هذا أحد معانيه.

-١٤-

المؤمن في زماننا في أكبر محنة وأعظم شدة، فلا؟ مجال أنه واقع بين محاذير متناقضة لا يمكن التخلص منها.. ألا ترى أنه لو جامل الفساق رمي بالتهاون في الدين تارة.. وأخذ منه الإمضاء والتقرير أخرى.. وقذف بالإغراء والتغرير ثالثة..

ولو اجتنبهم، أو شدد عليهم خاطر من شرهم تارة.. ورمي بالجمود والاعوجاج أخرى.. ونسب اليه كل نقص وقبيح ثالثة.. ولازال مبتلى بهذين المقامين على كثرة أقسامها، هذا مع أن كثيراً من الناس اليوم على طرفي إفراط، أو تفريط فيهما.

فكيف يمكن الحكم بنجاته منهم ؟!.. فلا شك في سقوط كلماتهم الباطلة في حقه، كما لا ريب في لزوم أخذ الحزم والاحتياط في عمله، وبهذا ظهر لك ابتلاء الدعاة الدينيين اليوم !..

-١٥-

قد أفاض على الإنسان فأوجده بعد أن لم يكن، ثم امتحنه اهتماماً لأمره، وإصلاحاً لشأنه.. فتارة بالتكليف، وأخرى: بتوجيه الواردات الشاقة عليه، فكان إيجاده تعالى إياه فيضاً عليه، وامتحانه بعدُ فيضاً آخر.. فالعاقل البصير إذا نظر إلى نفسه وجدها ممتحنة على كل حال، فهنا يلزم أمور:

الأول: الصبر على ما امتحنه تعالى به.

الثاني: الانقطاع إليه تعالى في كل شيء.

الثالث: أن لا يجر إلى نفسه ما يوجب زيادة محنته بسوء اختياره، وأنت كلما نظرت في هذه الجملة كنت على خير كثير.

إذا عرفت هذا.. فلتعلم أن كلا من إفاضته تعالى على العبد، وابتلائه غير مختصر بالمؤمن، بل يعم غيره، وهذا لا ينافي ما قلناه من ابتلاء المؤمن.

وبالجملة الإنسان هو إنسان لا ينفك من البلاء، باعتبار إيمانه وكفره يختلف ابتلاؤه.

-١٦-

الاعتقاد بالله واليوم الآخر أكبر سلوة للمبتلى.. بداهة رجاؤه كشف بلواه عاجلاً، أو تعويضه عنها آجلاً، بل ذلك أكبر رادع للمعافى المغرور، فأنه يخشى زوال نعمته، أو عقابه على معصيته.

-١٧-

الإنسان مبتلى دائما بكل من الملائم والمنافر، وهو لا محال لا ينفك عن الحركة لأجلها، فإذا كانت حركته نحو المشروع منها كان كذلك، بل ربما جرته إلى عدة فضائل، وإلا كانت غير مشروعة، بل ربما جرته إلى عدة رذائل.. ولنضرب ذلك مثلاً يكون منهاجاً نافعاً كافياً عن الاطناب والتطويل، وذلك: نحو من قاوم الفقر بكل ما أمكنه مما كان مشروعا، بل ربما قاومه بالزهد والقناعة ونحوهما، وهذا بخلاف آخر ممن جره هذا الموقف إلى ارتكاب الرذائل كالكذب، والسرقة، ونحوهما.. بل إلى ما هو أسوء، كالدياثة، والقيادة!!..

- ١٨ -

لا ريب من توارد كل من العافية والبلوى على اختلاف أقسامها عليك.. فلتكن معتبراً على كل حال، وإياك والاقتصار على النظر في حالة الحاضر، فإن البلوى توجب يأساً وقنوطا، والعافية توجب بطراً وغروراً، فيا عجباه ممن قصر نظره عليها، ولم يلتفت إلى الحالة السالفة، وهذا وصف الناقصين والمهملين، فعليك بتجويز الانقلاب والتغيير في كل آن، كما كان الأمر كذلك في سالف الزمان، فإذا قررت هذا على نفسك أفادك فوائد شتى، والله الموفق.

-١٩-

يا ولدي أنت في بلاء واقع، أو بلاء متوقع.. والعافية منهما بمنه تعالى.. هو الذي أوقفك هذا الموقف الشديد. كان ذلك منه فضلاً وإحساناً ولطفاً وامتناناً كي يحصل لك الإقبال عليه، والتوجه إليه، وهكذا أنت في نعمة موجودة، وأخرى مأمولة.. فأنت

في حفظها ومضاعفاتها واستمرارها ملجأ إليه تعالى، فهذا هو الموقف يوجب لك دوامها وكثرتها وحفظها، فلا بد لك من شكره تعالى عليها.
وعلى الإجمال إنك لو نظرت فيما كتبناه هنا نظراً دقيقاً، استفدت منه فوائد شتى، فعليك بالاهتمام لأمرك، وتوجه لربك، نسأله تعالى التوفيق على كل حال.

-٢٠-

يا ولدي أنت بين أمرين متقابلين اختباراً وامتحاناً.. فإن أخذت بأمر ابتليت بما يلزمه، وبما يترتب عليه.. وإن عدلت عنه ابتليت بما يلزمه، وما يترتب عليه.
ولنوضح ذلك بأمثلة:
منها: من يتكلف الرئاسة، وقع في مشاقها، وإن أعرض عنها، وقع في الخمول وآفاته.
ومنها: من اقتصر معاشه على الحلال عليه الأمر، وإن توسع في طلبه وقع في مشاقة.
ومنها: من أعرض عن الدنيا، وانصرف عنها تخلصاً من محاذيرها، فاته الجل إن لم يكن الكل من أمرها، ومن أقبل عليها وقع في محاذير طلبها، وما يترتب عليها، ومن تجمل ضويق بوظائف الغنى، ومن تبذل حقر.
ومنها: من أظهر له عذرا ضايقه من لا عذر له بمثله.. وأنت لو نظرت هنا عرفت شدة موقفك.. بداهة شدة ابتلاء ذوي الأعذار بالمضايقات الشديدة ممن لا قدر له.. كان بين إسقاط عذرك الصحيح، وبين ترويج العذر الباطل.. كلاهما ضرر عليك.
ومنها: أنك مع حيازة النعمة ابتليت بالحسد والبغي، ومع فوتها ابتليت بالاستهانة.. هذا موقفك لا تحل من أحد أمرين على الغالب الشائع، نعم يمكن التخلف، ولكنه نادر بالإضافة إليه.
فإن قلت: لم كان الأمر كذلك ؟..
قلت: قد جعل الله تعالى امتحاناً واختباراً، فعليك بما يرضيه فعلاً وتركاً هنا.
واعلم أن المتعارف عند أهل الدنيا هو دخولهم في مقاصدهم، كما هو شائع عندهم المألوف لديهم، وإن كان التخلف ممكنا، ولكنهم لا يعتنون به أصلاً..
أما أهل الدين، فكانت طريقتهم على خلافهم.
ومن هنا.. كان الحرمان غالباً عليهم.. نعم ربما نجحوا في مقاصدهم، ولكنه نادر.
والخلاصة أن أهل الدنيا وإنْ نجحوا في أصل طريقتهم.. إلا أنها لم تكن منتجة دائما، وإنما كانت منتجة غالباً، وأهل الدين وإن خالفوها في اختيار طريقتهم مراعاة لدينهم.. إلا أنه لم تكن طريقتهم عقيمة دائما، بل ربما أنتجبت مقاصدهم، وإن كانت نادرة.. وعلى كل حال فأنت واقف موقف الاختبار والامتحان، والله الموفق وعليه الاتكال.

-٢١-

يا ولدي يجب أن تعتبر نفسك في كل آن مبتلى تارة، ومعافى أخرى، ولتكن أخذاً بما يلزمك من وظيفة البلوى والعافية، بل لا يمكن انفكاك إحداهما عن الأخرى.
وبيان ذلك: هو أنك مكلف بالتكاليف الشرعية، وما هو إلا من أوضح أقسام البلوى، بل لو نظرت إلى ابتلائك بالعباد وعوارض الزمان لرأيت أنك مبتلى بالضرورة بما يشق عليك، كالمرض والعداوة ونحوهما.. لكن هذه البلوى التي ابتليت بها، وإن كانت شاقة لا يمكنك في حالها أن تحكم لنفسك بالعافية من أخرى.. فتحقق من ذلك أنك مبتلى لا محال، فلا يحسن منك الاغترار بمن لا يراك كذلك جهلاً وجحوداً، كما لا يحسن منك الاغترار بعافيتك.
والحاصل: ليس الإنسان إلا محالا للوظائف العقلية، والشرعية، والاخلاقية.. بل لا إشكال في كونه محلاً للعوارض الخارجية، كتبنا لك هذا لتكن حازماً متيقظاً، والله الموفق والمستعان.

-٢٢-

لا ريب في ابتلاء الإنسان بالقصور، والنقصان، والغفلة، والخطأ، والنسيان

.. وكلما ازداد المرء كمالاً حمل ذلك في حقه احتمالاً قريباً، فكان ذلك أكبر حاجز عن إصراره على مطالبه، وإعطائه تمام التروي لكل أمر في عواقبه.. فمرة تراه واقفاً متردداً.. وأخرى تراه حازماً محتاطاً.

فإن قلت: لا ريب في حصول القطع له في جملة منها ؟..

قلت: أولاً: نحن لا نضايق من كان قاطعاً.

وثانياً: كثيرا ما ينكشف أشباهه في قطعه.

وثالثاً: من أين يحصل القطع دائماً، أو كثير مع احتفاف أمره بما لا يحيط به، ولا يعلمه إلا الله تعالى.

فكم غني أمسى فقيراً.. وبالعكس ؟!..

وكم من تاجر ربحت فيها، وخسرت في الاخرة ؟!..

وكم من مريض عوفي، وكان ميؤوساً ؟!..

وكم صحيح عرض عليه ما لم يكن يحتمله ؟!..

وهكذا.. ما لا يحصى.. نعم منشأ هذا الأمر تسويل النفس ودواعيها، فتذهب بذلك إلى خلاف الحقيقة، والغرض من هذا هو أن النفس انتفاء عصمتك أكبر سبب موجب لتوجيهك إليه تعالى، وتوكلك عليه.

-٢٣-

الإنسان بما هو إنسان في غاية الابتلاء، ونهاية الامتحان، وذلك من جهة أخلاقه وعاداته، بل ومن جهة العوارض العارضة عليه.. كالمرض، والفقر، والعداوة إلى ما لا يحصى، بل مجرد ارتباط النفس بالجسد أكبر موجب لابتلائه وامتحانه كما برهن عليه في محله، وقد شد عليه الأمر بسبب إيمانه وكفره.

فإن قلت: قد ذكرت في عدة مواضع من الكتاب اختصاص المؤمن بذلك، فما وجه هذا التعميم ؟!..

قلت:أولاً: البلاء الوارد على المؤمن غالبا لم يكن مسبباً عن سوء اختياره، بل ربما يكون فيضاً منه تعالى عليه، وهذا بخلاف الكافر.

وثانياً: الغالب هو شيوع ابتلاء المؤمن، وهذا بخلاف الكافر، فإن الغالب هو شيوع عافيته للاستدراج ونحوه.. نعم رب كافر أعظم بلاء من المؤمن، ولكنه نادر.

- ٢٤-

الإنسان لا يرى أكبر نعمة لنفسه، ويرى أقل نعمة لغيره، بل يرى نفسه مبتلى، ولا يرى غيره كذلك، وهذان الأمران مما جبل عليه نوع الإنسان.

فالواجب عليك هو التنبه لذلك، وردع نفسك عن جهلها، ولؤمها، وغفلتها، تستفيد بذلك مصالح لا تحصى متعلقة بدينك ودنياك.

-٢٥-

ربما يقتصر البلاء على الفقر، والمرض ونحوهما مما كان ظاهراً عند كل أحد، وهذا من الجهل بمكان.

أولاً: رب بلاء خفي لايمكن بيانه، كمن أصيب بعرضه، فهو أشد محنة، لا سيما لو كان غيوراً عاجزاً، ويلحق به من يهتم لحفظه من الهتك، ومن ابتلى بعدو مكائد، وهو ضعيف لا يمكنه مقاومته.. إلى ما لا يحصى كثرة.

وثانياً: نفس ارتباط النفس بالجسد أكبر ابتلاء ابتلى به الإنسان، وهذا هو محل الاختبار والامتحان، فلو نظرت إلى علم الاختبار ودقائق معارفه عرفت ذلك، فهذا الموقف أشد موقف على الإنسان، ولكن الجاهل لا يحسبه شيئاً يهتم لأجله، فخطر النفس عظيم، وتهذيبها كذلك، ولذلك تفرغ جملة من الكاملين لها، واشتغلوا بها عن غيرها.

- ٢٦-

الامتحان، والاختبار طريقة عقلانية.. الأ ترى الملوك يختبرون رعاياهم، ولا سيما خواصهم، والزوج يمتحن زوجته، وولده ؟!.. وهذه الطريقة لم تكن صرف العبث، بل لأغراض معتنى بها في أنظارهم.. والإ خرجوا عن أنهم عقلاء.
وبهذا ظهر وجه امتحانه تعالى عباده واختبارهم في جملة من الأمور المسطورة في الكتاب والسنة، وغيرهما..
فظهر من ذلك أن تحليه تعالى بين الكفار وقوتهم، وابتلاؤنا بهم ونحو ذلك، كانت منه على طبق الحكمة لأجل اختبارنا وامتحاننا، هذا إذا لم نقل بأن ذلك ناشيء عن سوء اختبارنا.. والإ فهو خارج عن الامتحان، والاختبار بالبداهة.

- ٢٧-

إذا أظهرت فقرك استهين بك، ولم توصل صلة مغنية.. واذا كتمته ضويقت بوظائف الغنى.. وكذلك الأمر في كل من عافيتك وابتلائك.
فالواجب هو الانقطاع إليه تعالى، وانصرافك عن عباده اللؤماء، الذين امتلؤا شحة ولؤماً ونقصاً وجهلاً، وبهذا تعرف كيف يكون موقفك معهم؟!.. نسأله الانقطاع إليه، والتوكل عليه في كل حال.

- ٢٨ -

يا ولدي أنت مبتلى بنفسك.. ألا ترى أنك مجبول على حبها شديداً.. ومن حب شيئاً أمرض قلبه، وأعمى بصره، وهي عدوك الأكبر الذي لا تنفك عنه أبداً.. فإياك والركون إليها، والاعتماد عليها.. وإياك والاغترار بها في كل أطوارها وأحوالها وأوضاعها.. فهي عدوك على كل حال متربصة بك غائلة.. ألا ترى الرذيلة تجتمع مع الفقر، والغنى، والصحة، والمرض، والجوع، والشبع، والتعب، والراحة، والعز، والذل، وهكذا.. فيلزمك في كل آن الفحص عن معايبها، ورذائل أخلاقها، ثم الاشتغال في تهذيبها.
الخلاصة: في بحر عميق مظلم متلاطم الأمواج بعيد الساحل، وذلك هو النفس.. فكيف لك النجاة، وأنت في غاية الإهمال ؟!..
فإن قلت: كيف الخلاص منها، ومن شرورها ؟!..
قلت: يتعين عليك مراجعة الأخلاقيين فهم أطباء النفوس، وهم أعرف بتشخيص الداء والدواء، وكيفية المعالجة، ولا تكفي مطالعة كتبهم لتوقف التهذيب على التشخيص والتطبيق، والكتب قاصرة عن ذلك.

- ٢٩-

كل إنسان بصير يرى نفسه، وما يتعلق بها محاطاً لكل خطر، فلا يرى منه أماناً، فلا بد له من توجهه وانقطاعه إليه تعالى، بل يلزمه القناعة والزهد في الدنيا، وتقدير نعمه تعالى، وهكذا... هذا كله سير الأنبياء وأوصيائهم.
من هنا.. لم يكن في نظرهم للدنيا شأن يذكر.. أما ما يتعلق بالاخرة، فموقفك أشد خطراً.. فالواجب عليك توجيه نفسك لها، بل الثابت عندهم (ع) قصر أنظارهم عليها.
ومن هنا.. ترى الدنيا بالنسبة اليهم (ع) تارة قضاءً عليهم، وأخرى انصرافاً عنها، فمن كان معتقداً بهم، فليأخذ بسيرتهم بالقدر الممكن، والله الموفق.

- ٣٠-

الإنسان إذا كان كاملاً ممتازاً في خصائصه وصفاته، وكان له الوقع الكبير، والأثر العظيم عند ذوي المعرفة، والنفوس الكبيرة، والأخلاق الفاضلة، وهذا أمر في منتهى الوضوح.. فلاحظ التاريخ، بل الوجدان، أكبر شاهد عليه، بل هذا الإنسان الكامل لو جرى عليه بعض المظالم، ولا سيما المنافية لمقامه على أنحائها المختلفة لرأيت التوجع عليه، والتظلم لأجله، ونحوهما.. ممن كان يحاذيه في صفاته من أظهر الأشياء وأوضحها.
الخلاصة، الإنسان الكامل الممتاز الذي ضاع حقه، وأخر عن مقامه، وجحد فضله، يكون له الأثر الكبير مودة، وتوجعا، ونحوهما، عند الكاملين، الذين يشعرون

بأقل مراتب الكمال، وبهذا ظهر لك إمتياز آل محمد (ص)، وتقدمهم على غيرهم عن الأمة كافة، بل وغيرها مودة، وتوجعاً، وهكذا..

-٣١-

من أراد أن يكسب صفة شريفة.. كشجاعة، وعفة، ونحوهما.. فليجهد نفسه في حملها عليها مكرراً تحصل له لا محالة، والمرء يرى مشقة كبيرة في الدفعة الاولى، ولكنه كلما تكرر ذلك الأمر منه هان عليه، ويصير له عادة مألوفة، بل ربما تتأكد فيه إلى حد يشق عليه تركها، هذا هو العلاج في تكميل النفس بالأخلاق الفاضلة، فمن طلبها صدقاً تعين عليه، بل لا يمكن لأحد تحصيلها إلا بدونه، نعم الأمر خلق مطبوعا كذلك.. هذا ويمكننا القول بذلك قاعدة عامة سواء كانت للعلوم، أم للأخلاق، أم لغيرهما.. فمن أراد أن يكون فصيحاً، أو شاعراً، أو فيهما، وهكذا.. فليكرر الأعمال والأفعال المناسبة لذلك الأمر المقصود، وقد جربنا ذلك كله، فوجدناه أمرا لا يمكن التشكيك فيه، كما هو ظاهر لمن راجع مألوفاته وعاداته، ونحوهما.. لكن شاع في زماننا الاهمال حتى تخيل بعض الناس خلاف ذلك، فخابوا ولم ينالوا مقصودهم، وهو الموفق.

- ٣٢-

الكامل الممتاز هو الذي تساوى أمره عنده وجوباً، وعدماً.. وإقبالاً، وإدباراً.. وغناء، وفقراً.. وجاهاً، وخمولاً.. وعافية، وبلاء.. ودخولاً، وخروجاً، وهكذا.. بل هو الذي تساوى عنده الحياة والممات، فهو لا يرى أمرا تستريح إليه نفسه.

فمن أين يعلم بما يصلحه ويفسده في كل أمر وارد عليه في دنياه وأخراه، ومن نظر بعين البصيرة وجد ما قلناه حقاً، فليواظب على ردع نفسه في كل ما تألفه، وترغب فيه بمقتضى الطبيعة، وليتوجه إليه تعالى فازعاً إليه في جميع الواردات عليه.

قلت: أولاً: نحن لا ننكر ملائمة النفس لشيء ومنافرتها لآخره، ولكن ليس هذا معنى الصلاح والفساد.

وثانياً: أنا نجد الفقر ـ مثلاً ـ حافظاً لقوم مع أنهم ينفرون منه، وهو عين صلاحهم، وإن أبته نفوسهم.. وكذلك نجد الغنى مهلكاً لقوم مع أنهم مرتاحون به؛ ولكن عين الفساد، وقس عليهما غيرهما مما يرد عليك.

وثالثاً: يلزم رياضة النفس على كل حال، تارة تحملا مما تنفر منه، وأخرى قطعاً لما تألفه.

ورابعاً: الغرض من هذا هو التسليم إليه تعالى في كل شيء استند إليه تعالى.

إذا عرفت هذا.. لزمك في كل آن أن تنظر لنفسك وما تألفه وتنفره، قائلاً لها: كيف تفرحين بهذا، ولعله يسؤك من بعده ؟!.. وكيف تنفرين من هذا، ولعله يسرك من بعد؟!.. فإذا وصلت إلى هذا حزت خيراً كثيراً في دنياك وأخراك ؟..

-٣٣-

العجب كل العجب من قاصر يرى لنفسه عالية، وليس كذلك، فيرى نفسه تارة كاملة، وأخرى بصيراً عارفاً، وثالثة رئيسا متبوعاً اغترارا باحتفاف لمة به جعلوه شاخصاً لهم لدواعي مختلفة !!.. فمتكلف تجمل به، وفاسق صار ثقة بإضافته إليه، ومعيب تستر به، وبذيء هاتك لخلقه جعله ذريعة له نبه به، وفقير صيره إليها لمعاشه، وفاسد عبر عليه لفساده، وضعيف ساقط تحصن به، وهكذا.. وهذا القاصر إن كان معذوراً، وإلا فهو في غاية الإشكال.. ومن الواضح أن هذا القاصر بأطرافه صار أكبر ضربة قاضية على الصحيح والنجيب، ونحوهما.. وأعجب شيء تعذر تنبيهه لاستلزامه محاذير شتى لا تخفى، وهو العاصم.

-٣٤-

لا يمكن للإنسان أن يحكم على نفسه بكمالها مطلقاً.. فهو دائماً مشغول في تكميلها، فكيف يمكنه أن يتفرغ لغيرها ؟.. نعم إلا بصفة مشتركة بينه وبين غيره، وبهذا يمكننا

القول بأن من كان كذلك لزمه أن يكون مخلصاً في كافة أعماله خاصة وعامة، وهو الموفق.

- ٣٥-

تختلف الأخلاق من جهات:
الأولى: من حيث اختلاف المزاج.
الثانية: من حيث اختلاف الأوطان تربة وهواء، ونحوهما.
الثالثة: من حيث اختلاف الأباء وأضرابهم ممن ينشأ على تربيته.
الرابعة: من حيث اختلاف المحيط.
الخامسة: من حيث اختلاف أحكام النجوم في أصول المواليد ونحوهما... وكل ظاهر ثابت، إذا تمهد هذا، فلتعلم أن لكل، حكما خاصاً لا يجري في غيره، فلا يلتبس عليك الامر.

-٣٦-

الأهواء النفسية مرة تكون بارزة بعنوانها، وأخرى تكون بارزة بصورة صحيحة دينية، أم لا.. ولا ريب في وقوعها، لكن الأشد بلاء، والأعظم محنة هو الثاني منهما، فمن تتبع أحوالهما من المتعبدين الذين لم يكونوا مخلصين في عبادتهم وجده أمراً ظاهرا، بل وكذلك من نظر في أحوال علماء السوء، بل وكذلك من نظر إلى مواقف خلفاء الجور، بل وكذلك من نظر في أحوال العقلاء في أخلاقهم، وسائر أوضاعهم.. وهذا الامر لا يختص بهؤلاء، بل يعم الاتباع الذين تابعوهم لصرف أهوائهم، إذا تمهد هذا، فالواجب عليك هو أن تكون حازماً في سيرتك معهم محتفظا من سراية شرورهم إليك، والله الموفق والمعين.

- ٣٧-

الموصل إلى المعارف.. تارة يكون غامضاً لا يهتدي إليه، إلا الحاذق الماهر، والخبير الممارس، وأخرى لا يكون كذلك.. وهذان كانا في نفس الموصل، أو في بيانه، وقد جمعها الكتاب العزيز بأعلى مراتبها، وهذا أحد وجوه إعجازه.. نعم يتفق نحو ذلك في كلام أهل البيت المعصومين، ولكنه دون كلامه تعالى، ثم ذلك إنما هو في كلام واحد، وإلا فلو كانا في كلامين، فهو شائع في كتب العلماء، فإنهم تكلموا في ذلك بنحوين واعتبارين، ولكن مع العجائب في زماننا جعل أحدهما في مقام الأخر، حتى تولدت من ذلك مفاسد كثيرة.

- ٣٨ -

في الحديث: ((لا يترك الناس شيئاً من دينهم لاستصلاح دنياهم، إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه)) وظاهره أنه تعالى ينتقم منهم بذلك عقوبة لهم على عملهم، بل لا ريب في كون الإخلال بالوظيفة الشرعية تفويت لمصلحتها، أو إيقاع في مفسدتها، بل لا شبهة في استتباع الإخلال بها ما لا يحمد عقباه، بل قد ذكرنا اندراج الأخلاق في الدين، وذكرنا ما لها من الآثار.. اتضح لك وجه الحديث.

- ٣٩-

إنَّ ما قامت عليه الادلة القطعية.. هو: أن للمؤمن منزلة عظيمة عنده تعالى في استجابة دعائه، والانتقام له من أعدائه، ونحوهما.. وهذا مما لا ريب فيه، بل ورد عنه (ص)، وعن أهل بيته (ع): ((الأجر لكل كبد حرى)) ونحو ذلك.. مما يوجب زيادة الاهتمام في أمر المؤمن، وبهذا اتضح لك صحة جملة من مناقبهم (ع) المروية بطرقنا.

-٤٠-

إنَّ ما قامت عليه البداهة الإسلامية.. هو: أن للمؤمن على أخيه المؤمن حقوقا كثيرة يجمعها جامع واحد، هو تنزيله بمنزلته يقوم بحاجته، ويستر عيبه، وعورته، ويناصحه، ويواده، وهكذا.. مما هو مفصل في محله، والجامع لذلك كله قولهم (ع): ((أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، وتكره له ما تكره لها)).

الخلاصة.. يفعل به ما يليق به وجوديا كان ذلك الأمر اللائق، أو عد خفياً.. نعم هذا مرة يكون واجباً، وأخرى مستحباً.. ولتفصيل ذلك مقام آخر، هذا ولا يخفى شيوع إسقاط حقوق المؤمن في عصرنا، بل يعامل معاملة غيره.

- ٤١-

المؤمن هو الذي انطوى قلبه على الإذعان بالدين، بل صرف النظر إليه، يوجب اعتقاداً وإيماناً.. فكيف بتكريره، ودوام المعاشرة ؟.. فكان الناظر يرى الدين مكتوباً على جبينه، أو قلبه، بل لنفس وجود المؤمن آثار عظيمة.. وهذا هو الإيمان الحقيقي، ومع ذلك كله فإنا نقبل كل من يظهره، وإن كان باطناً ينكره، ولا ينافي ما ذكرناه.. وكيف كان؟.. والدليل عليه أن هذا أمر مطبق عليه بين المؤمنين ومشاهد لهم ؟ وهذا وإن كان من خصائصهم.. إلا أنك لو أنصفت لأذعنت بما قلناه.. ألا ترى إلى سائر الصفات.. كيف يبين أثرها.. وكيف يكون تأثيرها ؟..

الخلاصة: إن للمؤمن أثراً عظيماً ناشئاً من ذاته القائم بنفسه.

فتارة: يظهر أثره وإن كان في صدد كتمانه.

وأخرى: يكون سبباً لحصول الاعتقاد لغيره.

وثالثاً: يكون موجباً لتأكيده ورسوخه في غيره.

ورابعاً: يكون سبباً للفيض على غيره.

وخامساً: يكون سبباً مانعاً عن ابتلاء غيره.

وسادساً: يكون الأثر لدعائه ونحوه.

وهكذا.. وبهذا كله يظهر لك أن نفس وجود الإمام الغائب (ع) ذو آثار عظيمة في حفظ الدين والمسلمين، فضلاً عن دعائه ونظره، وفضلاً عن علو مرتبته الشامخة.. واتضح من هذا البيان فساد ما قيل من نفي الفائدة أصلاً مع غيبته، فتبصر.

- ٤٢-

لما كانت أهواء النفس مختلفة كانت متناقضة.. ومن هنا كان المؤمن غير متناقض، لأنه آخذ بعقله، متمسك بدينه.. وهذا هو طريق الله المستقيم، الذي ينتهي بالعبد إلى غاية عالية صالحة نافعة، فعليك بالمواظبة، وتحمل كل مشقة لأجله.

- ٤٣-

رب رذيلة فيك كامنة.. فكيف يمكنك معرفتها، وأنت محجوب عنها بعدة حواجب ؟!.. فالواجب مراجعة الأخلاقيين فهم الطريق لمعرفتها، بل هم لا يعرفونها منك ما لم تبذل لهم نفسك أحسن البذل، ولا يكشفونها لكإ بعد إحرازهم أنك في مقام المجاهدة، بل ربما كتموها عنك لتوقف تهذيبك على كتمانها عنك.

إذا عرفت هذا.. بان لك وجه سكوت بعضهم عن إرشادك، وذلك للخلل في مقدماته، وربما خاطروا منه.. هذا وقد شاهدنا العداوة المؤكدة بين العلماء والجهال في موارد شتى الناشئة من اطلاعهم عليها، وانكشافها لديهم.

فالواجب على العلماء أن يبادروا إلى ذكر الرذائل وكشفها، كما أن الواجب على الجهال هو كشفها لهم، وجعل كل وسيلة لمعرفتها.. وقد سمعنا عن بعض الأساطين من الأخلاقيين أخذ كل حزمة في مقام إرشاد الجهال وتحفظه منهم.

- ٤٤-

من أهمل نفسه.. وقع في مفاسد الإهمال لا محال عاجلاً أو آجلاً.. ألا ترى العجب المانع من طلب العلم موقعاً في الجهل، وفيه خسران الدارين.. ألا ترى الحسد ومن آثاره البغي، وفيه من المفاسد ما لا يخفى.. هذه مفاسد الإهمال.. وبذلك تعرف مصالح التهذيب، وإن كان أمراً شاقاً، ولكنه كتحصيل المال هو شاق ذو ثمرات.

وعلى الإجمال: أنت بين مفاسد الإهمال ومحاذيره، ومصالح التهذيب وفوائده، ومن ذلك تعلم أنك على كل حال تحمل مشاق التهذيب لتحصيل فوائده، وبين راحة الإهمال المستتبعة لمشاق، فإذا كنت لذلك كان الواجب عليك هو بذل مزيد الاهتمام لأمرك، والله الموفق.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.